الدرس السابع

رجاء وتمني .. بحرقة وألم!!

بعد أن أعلن إيمانه على الملأ، وطلب إليهم أن يستمعوا إليه.. فلم يتركوه يكمل كلامه حتى انقضوا عليه وقتلوه شهيداً في سبيل الله.. فضربوه ضربات فتحت له أبواب الجنّة.. فقال الله تعالى له: ﴿ادخل الجنّة﴾. فماذا قال؟

﴿قال : ياليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين﴾. وفي هذا درس عظيم نقف عنده وقفة تأمل وتبصر..

أخي الداعية إن قتل هذا الداعية من قبل قومه، وإراقة دمه، وإنهاء حياته لم يزده على قومه إلا شفقة وقلقاً وخوفاً.. لم يزدد إلا حباً في هدايتهم ورجوعهم إلى الله تبارك وتعالى، لم يزدد إلا حزنا على ما ينتظرهم من عذاب أليم بعصيانهم لله ربّ العالمين.. ولو لم يكن كذلك لما أطلق ذاك الرجاء

والتمني المفعم بكل معاني الحزن والألم والشفقة وحبّ الهداية لهم..﴿يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين﴾.. فلعلهم حين يعلمون ذلك يرجعون إلى الله ويتوبون إليه ويستغفرون من ذنوبهم... إنه لموقف عجيب يدل على عظمة إيمان صاحبه.. وسعة صدره المفعم بالرحمة على أولئك السائرين في دنياهم لاهين عابثين غافلين عمّا ينتظرهم... ناسين أنهم غداً سيكونون حطباً لنار جهنم!![1]

وكذا الإيمان حين يملك قلب الداعية ويملأ نفسه.. يفيض رحمة وحباً للناس أجمعين، فترى الداعية الصادق المخلص من يضني جسده ويتعب نفسه ويوقف وقته وجهده وماله في سبيل إيصال هداية الله للناس كافة.. نعم إنه كالشمعة التي تحرق نفسها كي تضيء للآخرين وتبدد عنهم ظلام الليل الدامس!!

وكذا الداعية تراه في حركة دائبة مستمرة لا تعرف كللاً أو مللاً.. بل تجده لا يهنأ بطعام أو يلذ بشراب.. أو يقرّ له قرار او يطمئن له جنب أو يهدأ له بال.. والناس من حوله يتدافعون إلى نار جهنم.. والناس من حوله قد لجو في عصيانهم.. وتسابقوا في ذنوبهم!! نعم كيف ينام ليله

---

(١) قال تعالى: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾

الطويل؟! وقد استيقظت الشياطين وباضت في القلوب وفرخت في النفوس.. فطغت وأعمت وأضلت!!

وليس بداعية من نام ليله قرير العين هانيها!! ليس بداعية من لم يقلق مضجعه.. ويدمع عينيه ما يراه من حال المسلمين بل والناس أجمعين وقد انقادوا لسلطان إبليس الذي غدت راياته ترفرف.. وأبواقه تعزف.. وأتباعه يصولون ويجولون!! ليس بداعية من لم يحركه هذا.. وليس بداعية من لا يتقطع ألما وحرقة وحسرة على هذه الأحوال.. ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم القدوة الحسنة الذي كادت تذهب نفسه من شدّة ألمه وحسرته على الكفار الذين أبوا إلاّ أن يكونوا من أهل النار، حتى خاطبه ربّ العزّة جل جلاله في أكثر من موضع في كتابه العزيز:

﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ...﴾ فاطر ٨

﴿لعلك باخع نفسك ألاّ يكونوا مؤمنين﴾ الشعراء٣

﴿فلعلك باخعٌ نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا﴾ الكهف ٦.

أي يا محمد لعلك مهلك نفسك لعدم إيمان هؤلاء الكفار. و (باخع) في اللغة: مهلك وقاتل، وأصل البخع : أن يبلغ بالمذبوح النخاع وهو الحزم النافذ في ثقب الفقرات وهو

أقصى حدّ الذبح فإذا كان هذا هو حال النبي صلى الله عليه وسلم مع الكفار.. فكيف يجب ان يكون حالنا مع إخواننا المسلمين الذين أضلهم الشيطان واتبعوا الشهوات والهوى؟! فهل ننصب من انفسنا قضاة وحكاماً عليهم؟! نقذف هذا بالفسق وذاك بالكفر، وهذا بالجهل وذاك بالنفاق!! إن الله تعالى لا يحاسبنا يوم الحساب على عدم إصدار هذه الفتاوي والأحكام في تصنيف الناس، بل إن الله تعالى سيحاسبنا ويسألنا هل بلغتم هؤلاء وبينتم لهم ونصحتم...؟!

وما أعظم ما وصف به الله تبارك وتعالى رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم حين قال: ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم. فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هوعليه توكلت وهو ربّ العرش العظيم﴾ التوبة ٢٨، ٢٩.

إن الداعية الصادق هو الذي يترسم خطى نبيه صلى الله عليه وسلم.. ويقتفي أثره.. في كل أمر من أمور حياته.. فالداعية الصادق هو الذي يربأ بنفسه وإيمانه أن يكون حكماً على الناس.. وليس بداعية من شغله هذا عن دعوة العاصي والمذنب والمسيء بل والجاحد والكافر إلى الله تبارك وتعالى..

***

وهذا الدرس نتوجه به لإخواننا الأحبة من الدعاة الذين سرعان ما يتسرب إلى أنفسهم الكلل ويسيطر عليهم الملل.. فيلجأون إلى ما لجأ إليه سيدنا نوح عليه السلام بعد تسعمائة وخمسين عاماً من العمل والدعوة في الليل والنهار.. في السر والعلن.. يلجأون هم اليه بعد محاولة أو محاولتين.. أو محاضرة أو محاضرتين.. أو نصيحة أو نصيحتين.. أو قل بعد يوم أو يومين.. وإن شئت المبالغة فقل بعد شهر أو شهرين.. تجده يقول- بعد محنة يتعرض لها.. أو بلاء يصيبه.. أو وظيفة يفصل منها.. أو سجن يدخله بضعة أيام:

﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديّارا، إنك إن تذرهم يضلّوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفارا﴾ نوح

ونحن معه ندعوا بهذا الدعاء على الكفار، ولسنا ضدّ من يدعوه.. لكننا نحب أن يعلم الداعية أن سيدنا نوحاً عليه السلام حين دعا الله تعالى بهذا الدعاء واستجاب الله له دعاءه.. كان قد رفع تقريراً مفصلاً للّه ربّ العالمين يبيّن فيه ما بذل من جهد وعمل في دعوة قومه وهدايتهم.. قبل أن يرفع يديه بالدعاء عليهم..

ولذا نحب منك أخانا الداعية قبل أنْ ترفع يديك بالدعاء أن ترفع تقريرك الذي تبيّن فيه جهدك وجهادك في سبيل دعوتك– كما فعل نوح عليه السلام فتقول كما قال:

﴿ربّ إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلم يزدهم دعاءي إلا فرارا، وإني كلّما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا﴾.

انظر إلى هذه المعاناة التي عاناها نوح عليه السلام مع هؤلاء القوم.. لكنه لم ييأس ولم يمل أو يستسلم بل غيّر من طريقة الدعوة وجدّد في هذه الطريقة.. واتبع أسلوباً جديداً في دعوتهم: ﴿ثم إني دعوتهم جهاراً. ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا. فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا. ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا. مالكم لا ترجون لله وقارا﴾.

وأخذ بعد ذلك ببيان عظمة وقدرة الخالق التي تتجلى في خلق الإنسان، وخلق السماوات وفي ما جعل فيها من نجوم وكواكب، والأرض وكيف بسطها.. كي تكون صالحة لحياة الإنسان عليها.. كل هذا كي يوصل الهداية إلى قلوبهم.. وينقذهم من النار وغضب الجبار.. فأيّ شيء فعلت من هذا يا أخي؟!

هل سألت نفسك عن نهارك فضلاً عن ليلك في أي شيء تقضيه وتقطعه؟!

وهل حاولت إن سدّت طريق مع أحدهم أن تسلك آخر؟! وإن فشل أسلوب بحثت عن غيره؟!

وهل سألت نفسك وأنت تقول :

هذا لا فائدة منه..

وهذا قد ختم الله على قلبه..

وهذا من أصحاب النار.. أيّ شيء قدمت أو أيّ شيء فعلت حتى تنقذه من النار وغضب الجبار؟!

عليك أن تعلم أخي ان نوحاً عليه السلام بعد أن رفع تقريره المفصل هذا بين موقف قومه الذين لجّوا في طغيانهم يعمهون: ﴿قال ربِّ إنّهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً. ومكروا مكراً كبّارا. وقالوا لا تَذَرُنَّ آلهتكم ولا تذرنّ وَدّاً ولا سواعاً ولا يغوثَ ويعوق ونسرا. وقد أضلّوا كثيراً ولا تزد الظالمين إلا ضلالا﴾ نوح٢١-٢٤. انظر مرة ثانية وثالثة ورابعة في موقف هؤلاء القوم من نوح عليه السلام ودعوته.. وقارنه بما تواجه به أنت في هذه الأيام!!

والداعية إلى الله تعالى ليس همّه أن يقيم الحجة فقط على من يدعوه.. بل إن همه الأول هو أن ينقذه من النار.. وإلا فإن الحجة تقام بالمرة الأولى.. وإن إقامة الحجة ليست بحاجة إلى تسعمائة وخمسين سنة من الدعوة ليلاً ونهاراً، سراً وجهاراً!! أو ثلاث عشرة سنة كاملة قضاها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ظهراني قريش الذين تحدوا ربّ العزة بكفرهم وإيذاء نبيه صلى الله عليه وسلم، ثلاث عشرة سنة في مكة المكرمة مليئة بكل أصناف البلاء والعذاب الذي صبّه هؤلاء على رسول الله والفئة القليلة التي آمنت وصدقت بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم.. ثلاث عشرة سنة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر أصحابه رضوان الله عليهم بالصبر والثبات واحتساب الأجر عند الله تبارك وتعالى: (صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنّة).. ثلاث عشرة سنة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقابل السيئة بالحسنة، ويدعو إلى الله بالكلمة الطيبة ويجادلهم بالتي هي أحسن.. ثلاث عشرة سنة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بعد كل محنة شديدة تعرض له من قبل قومه صابراً محتسباً: اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون.. لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحد الله.. الله الله ما أعظمك يا سيدي يا رسول الله!!

إنه أمر تبليغ هذه الدعوة... «إنه الأمر الهائل العظيم... أمر رقاب الناس، أمر حياتهم ومماتهم، أمر سعادتهم وشقائهم، أمر ثوابهم وعقابهم، أمر هذه البشرية، التي إما أن تبلغ إليها الرسالة فتقبلها وتتبعها فتسعد في الدنيا والآخرة، وإمّا ألّا تبلغ إليها فتكون لها الحجة على ربها، وتكون تبعة شقائها في الدنيا وضلالها معلقة بعنق من كلف التبليغ ولم يبلغ.

فأما رسل الله عليهم الصلاة والسلام فقد أدوا الأمانة، وبلغوا الرسالة، ومضوا إلى ربهم خالصين من هذا الالتزام الثقيل، وهم لم يبلغوها دعوة باللسان، ولكن بلغوها- مع هذا- قدوة ممثلة بالعمل، وجهاداً مضنياً بالليل والنهار، لإزالة العقبات والعوائق، سواء كانت هذه العقبات شبهات تحاك، وضلالات تزين، أو كانت قوى طاغية تصد الناس عن الدعوة وتفتنهم، كما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين.

وبقي الواجب الثقيل على من بعده، على المؤمنين برسالته، فهناك اجيال وراء أجيال جاءت وتجيء بعده -صلى الله عليه وسلم- وتبليغ هذه الأجيال منوط بعده بأتباعه، ولافكاك لهم من التعبة الثقيلة- تبعة إقامة حجة الله على الناس، وتبعة استنقاذ الناس من عذاب الآخرة وشقوة الدنيا- إلا بالتبليغ والأداء على ذات المنهج.

فالرسالة هي الرسالة، والناس هم الناس، وهناك ضلالات وأهواء وشبهات وشهوات، وهناك قوى عاتية طاغية تقوم دون الناس ودون الدعوة، وتفتنهم كذلك عن دينهم بالتضليل وبالقوة.

الموقف هو الموقف، والعقبات هي العقبات، والناس هم الناس، ولا بد من بلاغ، ولا بد من أداء، بلاغ بالبيان، وبلاغ بالعمل، حتى يكون المبلغون ترجمة حية واقعة مما يبلغون.

إنه الأمر المفروض الذي لا حيلة في النكوص عن حمله، وإلا فهي التبعية الثقيلة، تبعة ضلال البشرية كلها، وشقوتها في هذه الدنيا، وعدم قيام حجة الله عليها في الآخرة، وحمل التبعة في هذا كله، وعدم النجاة من النار»[1]

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/٣١.

الخاتمة

﴿قيل: ادخل الجنّة
قال: يا ليت قومي يعلمون:
بما غفر لي ربي
وجعلني من المكرمين﴾
جنّة .. ومغفرة .... وإكرام
أنعم بها من خاتمة!!
ويا لها من خاتمة!!

إنها الخاتمة المرجوة.. والغاية المطلوبة والمكانة المرموقة..

وهل يصلح مع بيان الله بيان؟! إنها خاتمة موجزة.. لكنها جامعة مانعة..حوت كل المعاني... وبينت الفضل كله .. وفصلت في الجزاء..

جنة..
ومغفرة..
وإكرام..

«وتتصل الحياة الدنيا بالحياة الآخرة، ونرى الموت نقلة من عالم الفناء إلى عالم البقاء، وخطوة يخلص بها المؤمن،

من ضيق الأرض إلى سعة الجنة، ومن تطاول الباطل إلى طمأنينة الحق، ومن تهديد البغي إلى سلام النعيم، ومن ظلمات الجاهلية إلى نور اليقين»[1]

فيا طلاب الجنة..

هذا هو الطريق.. فاعرفوه.

وهذا هو النبع.. فردوه

وهذا هو الأصل.. فاعتصموا به.

وهذا هو الحق.. فاطلبوه.

وهذه هي الغاية.. فادركوها.

وهذه هي الخاتمة.. فارجوها.. واعملوا لها..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين..

اللهم اجعلنا من العالمين لإعزاز دينك ونصرة شريعتك

اللهم اهدنا واهد بنا واجعلنا هداة مهتدين ولا تجعلنا ضالّين ولامضلين.. آمين

والحمد لله رب العالمين

كان الفراغ منه في ليلة السابع والعشرين

من شهر رمضان المبارك سنة ١٤١٣هـ يوم الجمعة.

أبو عبيدة.

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/٢٩٨٦٤.

المراجع

١. اساليب الغزو الفكري، د. علي جريشة

٢. الاستيعاب في حياة الدعوة الداعية، فتحي يكن.

٣. حاضر العالم الاسلامي، د. علي جريشة.

٤. حول إعادة تشكيل العقل المسلم، د. عماد الدين خليل.

٥. رجال أنزل الله فيهم قرآناً، د. عبدالرحمن عميرة.

٦. روائع من أدب الدعوة، أبو الحسن الندوي.

٧. صناعة الحياة، محمد أحمد الراشد.

٨. في ظلال القرآن، سيد قطب.

٩. مذكرات الدعوة والداعية، حسن البنا.

١٠. المنطلق، محمد أحمد الراشد.

١١. هذا الدين بين جهل أبنائه وكيد أعدائه، د. محمد السيّد الوكيل.

١٢. هكذا علّم الأنبياء، سلمان بن فهد العودة.